القاعدة الفقهية " قراءة القرآن فلفظه متعين "

دراسة تحليلية تطبيقية

*د. مصطفى علي الجهاني

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، شرح قلوب المسلمين بالقرآن، ووعد قارئه والعامل فيه وبما جاء فيه بالأجر والثواب العظيم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

فإن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز الذي لم يستطع أحد ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثله؛ لأنه الكتاب المحكم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، يقول الله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.(البقرة: 23) فقد بلغ هذا الكتاب الغاية في التمام والكمال، يجد فيه كل طالب للخير بغيته وضالته، مهما كان توجهه وتخصصه، وسيجد فيه حلاوة وطلاوة وتنوعا، ودقة متناهية في اختيار الألفاظ الدالة على المعنى المراد.

وإن العارف بلغة العرب، المتأمل في كتاب الله يجد أن كل كلمة من كلمات الكتاب العزيز قد وضعت بدقة لا يمكن أن يختل نظامها، ولا يمكن لغيرها أن تحل محلها ولا أن تؤدي معناها،

فقد يظهر للقاريء لأول وهلة أن الله تعالى قد استعمل بعض الكلمات المترادفة، وأن ذلك لمجرد التنوع والتفنن، لكن بعد التأمل وإعمال الفكر، يظهر جليا أن كل لفظ وضع في مكانه ليدل على غير ما يدل عليه مرادفه، فقد تجتمع الكلمة مع غيرها في بعض المعاني أو في أكثرها، لكنك ما

إن أمعنت النظر فيها وفي السياق الذي صيغت فيه إلا واكتشفت معنى مستقلا يميزها

* عضو هيئة تدريس بكلية التربية ـ طرابلس - جامعة طرابلس - ليبيا

عن غيرها من مرادفاتها لا يدل عليه غيرها، وقد اجتهد علماؤنا في وضع بعض القواعد التي تضبط بعض الألفاظ في الاستعمال القرآني، ورتبوا على ذلك أن التزام القاريء للقران بألفاظ القرآن دون زيادة ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير، ولا استبدال كلمة بأخرى، هو أمر متعين يتلى القرآن كما أنزل،

وإن عجز العقل عن الإدراك؛ لأنه الكتاب الذي لا تنتهي عجائبه، فالأمر لا يدركه أهل عصر يدركه أهل عصر آخر.

وسأحاول في هذا البحث أن أثبت صحة هذه القاعدة، وسأجري بعض التطبيقات في جانب من جوانبها، وذلك من خلال: مقدمة، وأربع مباحث، وخاتمة، وهي مقسمة كالآتي: -

المقدمة: وتناولت فيها سبب اختيار الموضوع، وخطة البحث

المبحث الأول: في معنى ألفاظ القاعدة، ومعناها العام، ودليلها.

المطلب الأول: معاني ألفاظ القاعدة.

المطلب الثاني: المعنى العام للقاعدة.

المطلب الثالث: دليلها.

المبحث الثاني: تطبيقات على القاعدة.

المطلب الأول: في معنى السنة لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: في معنى العام لغة واصطلاحا.

المطلب الثالث: في معنى الحول لغة واصطلاحا.

المطلب الرابع: في معنى الحجة لغة واصطلاحا.

المبحث الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف.

المبحث الرابع: دراسة تحليلية لبعض الآيات.

المطلب الأول: الآيات التي ورد فيها كلمة السنة.

المطلب الثاني: الآيات الوارد فيها كلمة العام.

المطلب الثالث: الآيات الوارد فيها كلمة الحول.

المطلب الرابع: الآيات الوارد فيها كلمة الحجة.

الخاتمة: وضمنتها أم النتائج التي توصلت لها.

وفي الختام أسأل الله - تعالى - التوفيق والسداد لكل مريد للخير.

المبحث الأول: في معنى ألفاظ القاعدة، ودليلها

نص القاعدة:

« قراءة القرآن فلفظه متعين « (عبد الوهاب السبكي 2/ 106، بدر الدين الزركشي: 2/ 230)

و"قراءة" في القاعدة معمول لعامل محذوف. تقديره: إلزم قراءة القرآن، فهي مفعول به لفعل إلزم والله أعلم.

المطلب الأول: معاني ألفاظ القاعدة

قراءة: من قرأ: القرء بفتح القاف: الحيض، وهو أيضا الطهر؛ لأنه من أسماء الأضداد. وقرأ الكتاب قراءة وقرءانا بالضم: تلاه. (ابن منظور. مادة " قرأ ": 3/ 42)

القرآن: من قرأ الشيء قرءانا أي جمعه وضمه، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور ويضمها. (ابن منظور. مادة " قرأ ": 3/ 42)

فلفظه: الفاء: للعطف والترتيب والتعقيب

لفظ: لفظ الشيء من فمه رماه، وذلك الشيء المرمى، ولفظ بالكلام وتلفظ به تكلم به، واللفظ واحد الألفاظ وهو في الأصل مصدر. (ابن منظور. مادة « لفظ» 3/ 370)

متعين: العين: حاسة الرؤية، وجمعها: أعين وعيون وأعيان، وعين الشيء خياره، وعين الشيء: نفسه. يقال: هو بعينه. وتعين الرجل المال: أصابه بعين.

وتعين عليه الشيء لزمه بعينه. وهذا المعنى هو الموافق لما نحن بصدد دراسته. (ابن منظور. مادة عين": 2/ 946)

المطلب الثاني: المعنى العام للقاعدة

هذه القاعدة ترد بعض الشبه التي دار حولها جدل بين بعض أهل العلم، فإنك تجد بعض أهل العلم يقول: هذا الحرف في القرآن زائد، ويقول بعضهم: تأدبا حرف صلة، ويقول بعضهم: إن هذا اللفظ مرادف لهذا اللفظ، إلى غير ذلك من الأقوال، وهذه القاعدة أثبتت أن كل حرف في القرآن موضوع في محله لا يمكن الاستغناء عنه، ولا يمكن أن يحل غيره محله، ولو حدث ذلك لحدث خلل في المعنى المراد، وهو مراد الله تعالى، فقراءة القرآن تستلزم الإلتزام بلفظه كما أوحى به الله تعالى، وأن ذلك أمر متعين لا يجب الخروج عنه، فلا ينوب حرف عن حرف، ولا يزاد فيه حرف، ولا تستبدل كلمة بكلمة أخرى وإن كانت مرادفة لها.

المطلب الثالث: دليل القاعدة

يستدل على صحة هذه القاعدة بآيات من القرآن الكريم منها، قوله تعالى: ﴿ ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾(هود:1)

وجه دلالة الآية: إن قوله تعالى ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾، يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم وضعت كلماته وحروفه بإحكام، والإحكام: إتقان الصنع، مشتق من الحكمة، وهي إتقان الأشياء بحيث تكون سالمة من الإخلال التي تعرض لنوعها، أي جعلت آياته كاملة في نوع الكلام، بحيث سلمت من مخالفة الواقع ومن إخلال المعنى واللفظ. (**محمد الطاهر ابن عاشور:** 12/ 314)

فكل لفظ وكل كلمة في القرآن الكريم وضعت في مكانها المناسب بدقة؛ لتخدم المعنى، وهي دقة متناهية وكاملة بكمال الله ـ عز وجل ـ فلا يجوز في القرآن حذف ولا إضافة، ولا تقديم ولا تأخير، وقد تولى الله حفظه بهذه الصورة، ووعد بعدم تغييره وتبديله إلى قيام الساعة.

وربما يتصور بعضهم أن اختلاف القراءات إنما هو من اجتهاد القراء، فيزيد قاريء حرفا، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ مالك يوم الدين ﴾، وهذا مخالف للحقيقة والواقع، وقد فصل القول في هذه المسألة الشيخ الطاهر ابن عاشور، وسأكتفي بما ذكره، وهو: (... أرى أن للقراءات حالتين إحداهما لا تعلق لها بالتفسير بحال، والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة.

أما الحالة الأولى: فهي اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات، كمقادير المد والإمالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والمس والغنة، مثل عذابي بسكون الياء، وعذابي بفتحها، وفي تعداد وجوه الإعراب، كقوله تعالى: ﴿ حتى يقول الرسول﴾) البقرة: 212(، بفتح لام يقول، وضمها ...، ومزية القراءات في هذه الجهة عائدة إلى أنها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرها من جهة:

- تحديد كيفيات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها.
- بيان اختلاف العرب في لهجات النطق بتلقي ذلك عن قراء القرآن من الصحابة بالأسانيد الصحيحة، وهذا غرض مهم جدا لكنه لا علاقة له بالتفسير؛ لعدم تأثيره في اختلاف معاني الآي.

فأئمة العربية لما قرأوا القرآن قرأوه بلهجات العرب الذين كانوا بين ظهرانيهم في الأمصار التي وزعت عليها المصاحف: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام، وقيل: واليمن

والبحرين، وكان في هذه الأمصار قراؤها من الصحابة قبل ورود مصحف عثمان إليهم، فقرأ كل فريق بعربية قومه في وجوه الأداء، لا في زيادة الحروف ونقصها، ولا في اختلاف الإعراب دون مخالفته مصحف عثمان. ومن أجل ذلك اتفق علماء القراءات والفقهاء على أن كل قراءة وافقت وجها في العربية ووافقت خط المصحف ـ أي مصحف عثمان ـ وصح سند راويها، فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردها.

وأما الحالة الثانية: فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات، مثل: مالك يوم الدين، وملك يوم الدين، وكذلك اختلاف الحركات الذي يختلف معه معنى الفعل، كقوله: ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون﴾. فقرأ بعضهم بفتح صاد " يصدون وبعضهم بضمها، فالأولى: بمعنى: يصدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى صدودهم في أنفسهم، وكلا المعنيين حاصل منهم، وهي من هذه الجهة لها مزيد تعلق بالتفسير؛ لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره، ولأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة.

والظن أن الوحي نزل بالوجهين وأكثر، تكثيرا للمعاني إذا جزمنا بأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مرادا لله تعالى؛ ليقرأ القراء بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئا عن آيتين فأكثر، وهذا نظير التضمين في استعمال العرب، والتورية والتوجيه في البديع، وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن.)ابن عاشور: 51/1 وما بعدها (وبناء على هذا فهم الفقهاء أن قراءة القرآن بغير هذه القراءات الصحيحة، لا يجوز، ولا تصح به العبادة.

المبحث الثاني : تطبيقات على القاعدة

سأخصص في هذا المبحث استعمال القرآن لكلمة السنة والعام والحول والحجة خاصة، وسأحاول في هذا الدراسة كشف العلاقة الخفية بين هذه الكلمات الأربع، بمعرفة معانيها اللغوية ودلالاتها اللفظية، وربطها باستعمالاتها القرآنية باستعراض بعض الآيات التي ذكر فيها لفظ منها، ومحاولة إدراك سبب اختياره دون غيره، ولمعرفة الفرق بين السنة والعام والحول والحجة لابد من معرفة المعنى اللغوي لكل منها، ثم دراسة وتحليل معاني الآيات التي وردت فيها، بحيث يتحدد المعنى الدقيق لكل منها.

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي للسنة

أصل السنة: سنهة بوزن جبهة، حذفت لامها ونقلت حركتها إلى النون فصارت سنة؛ لأنها من سنهت النخلة وتسنهت إذا أتى عليها السنون. وقيل: إن أصلها سنوة بالواو، فحذفت الواو كما حذفت الهاء، تقول: تسنيت عنده إذا أقمت عنده سنة؛ ولهذا فإنها تجمع على سنوات، وسنهات، وإذا جمعت جمع الصحة كسرت السين فقلت: سنين وسنون، وبعضهم يضمها، ويقول: سنون بضم السين وتصغيره: سنيهة وسنية.

والسنة: واحدة السنين، وهي العام إذا كان مجذبا، فهو السنة ففي الحديث: « اللهم أعني على مضر بالسنة « .(البخاري. رقم"1006"،2/ 492 بلفظ قريب).

والسنة: الجدب، يقال: أخذتهم السنة إذا أجدبوا وأقحطوا. وورد أن عمر ـرضي اللّه عنه ـ: أنه لا يجيز نكاح عام سنة. أي عام جدب. يقول: لعل الضيق يحملهم على أن ينكحوا غير الأكفاء.

وقال مرة: إنه لا يقطع في عام سنة، أي لا يقطع يد السارق في سنة جدب. وفي حديث الدعاء على قريش: «(أبو نعيم الأصبهاني: 4/ 6) أعني عليهم بسنين كسني يوسف». (البخاري. رقم «1006»)

والتسنه: التكرج الذي يقع على الخبز الشراب، وفي الآية: ﴿ لم يتسنه ﴾.) البقرة: 258(. أي لم تغيره السنون (ابن منظور مادة "سنة": 2/224 وما بعدها، والفيروزابادي: 3/ 269)

ثانيا: السنة اصطلاحا:

السنة: العام، وعدد أيامها بالتقويم الهجري (القمري) 355 أو 354 يوما مقسمة اثني عشر شهرا، وبالتقويم الميلادي (الشمسي)366 أو 365 يوما. (محمود عبد الرحمن عبد المنعم:2/ 300)

ثالثا: أقسام السنة:

واختلف في تقسم السنة، فمنهم من قسمها إلى أربعة أقسام وهي: ـ

1 ـ الربيع: وهو الذي تسميه الناس الخريف؛ لأن الثمار تخترق فيه: أي تجنى.

2 ـ الشتاء: وهو الفصل المعروف بسقوط المطر وشدة البرد.

3 ـ الصيف: وهو عند الناس الربيع.

4 ـ القيظ: وهو عند الناس الصيف.

ومنهم من قسم السنة قسمين: ـ

1 ـ الصيف ستة أشهر.

2 ـ الشتاء ستة أشهر.

المطلب الثاني: العام لغة واصطلاحا

أولا العام لغة: العام من عوم، والعام: الحول، والجمع: أعوام.

وعاومه معاومة وعواما: استأجره للعام. يقال: أجرت فلانا معاومة، وعاملته معاومة، كما تقول: مشاهرة، ومساناة. والمعاومة المنهي عنها: أن تبيع زرع عامك أو تمر نخلك أو شجرك لعامين أو ثلاثة. وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن بيع النخل معاومة. (مسلم. رقم "1536": 10/)

وعوم الكرم تعويما: كثر حمله عاما وقل عاما آخر، وعاومت النخلة: حملت عاما ولم تحمل آخر، وعنب معوم: إذا حمل عاما ولم يحمل عاما.

وعام في الماء عوما: سبح، ورجل عوام: ماهر بالسباحة، قال ﷺ: «علموا صبيانكم العوم ...» (مسند أحمد. رقم « 323»: 302/1، وهو جزء من حديث).هو السباحة، وعامت النجوم عوما: جرت، وأصل ذلك في الماء، والعوام بالتشديد: الفرس السابح في جريه.

والعامة: المعبر الصغير يكون في الأنهار، وهي هنة تتخذ من أغصان الشجر ونحوه يعبر عليها النهر، وهي تموج فوق الماء.والجمع: عام وعوم.(ابن منظور. مادة "عوم": 2/ 933 وما بعده، وعلي إسماعيل الأندلسي:2/ 67)

ثانيا: العام اصطلاحا:

العام في الاصطلاح: كالسنة، لكن يكثر استعماله فيما فيه رخاء.(ينظر محمود عبد المنعم: 2/ 466)

المطلب الثالث: الحول لغة واصطلاحا

أولا: الحول لغة: من حول يقال: حال عليه الحول: مرّ، وحالت الدار وحال الغلام: أتى عليه حول، وأحال الرجل بالمكان: أقام به حولا، واستحالت: أي انقلبت عن حالها واعوجت، وحال عن العهد يحول: انقلب، وحال لونه تغير واسود، وحال الإنسان وأحواله: أي ما يختص به الإنسان من الأمور المتغيرة.

والحول ما له من القوة في نفسه وبدنه وقنيته، ومنه (لا حول ولا قوة إلا بالله).(ابن منظور. مادة "حول": 1/ 758 وما بعدها)

ثانيا: الحول اصطلاحا: هو السنة اعتبارا بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها. (محمود عبد المنعم: 1/ 603)

المطلب الثالث: الحجة لغة واصطلاحا

أولا: الحجة لغة:

الحجة: من حجج، وهو في اللغة يطلق ويراد منه معان منها: ـ

القصد: فالحج عمل السنة. تقول: حججت فلانا أتيته مرة بعد مرة. فقيل: حج البيت، لآن الناس يأتونه كل سنة، السنة: بالكسر، والجمع الحجج.

الحجة: بضم الحاء البينة والبرهان والدليل المقنع. وهو الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة.(ابن منظور. مادة "حجج": 1/ 570)

ثانيا: الحجة اصطلاحا:

هي: كثرة القصد، ومنه سميت الطرق محجة؛ لكثرة التردد. (محمود عبد المنعم:1/ 550)

المبحث الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف بين السنة والعام والحول والحجة

من خلال استعراضنا للمعاني اللغوية لهذه الكلمات الثلاث، يتضح جليا أن كلا منها يدل على فترة زمنية تعرف بالسنة والعام والحول، وهذه المدة اثنتا عشر شهرا كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنتا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم...﴾. (التوبة: 36)، وإن السنة أو العام أو الحول منه الشمسي ومنه القمري، وأن عدة أيام الشمسية: "365 أو366 يوما"، وعدة أيام القمرية "355 أو 354 يوما".

وتختلف نوعية السنة من حيث الرفاهية والضيق، فكثيرا ما تستعمل كلمة السنة في الجذب والضيق، وكثيرا ما يستعمل العام في الرخاء والرفاهية، وكثيرا ما يستعمل الحول فيما فيه حكمة.

قال الفيروزابادي في السنة: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾. (الأعراف: 129)عبارة عن الجذب، وأكثر ما يستعمل السنة في المدة التي فيها جذب. (الفيروزابادي: 3/269)

وقال في العام: قال تعالى: ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾. (يوسف: 49) قيل: يعبر عن الجذب بالسنة، وعما فيه رخاء بالعام، وقال تعالى: ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ (العنكبوت: 13]) .

وقال في الحول: (وأكثر استعماله فيما في تعاطيه خبث، وقد يستعمل فيما فيه حكمة؛ ولهذا قيل: في وصف الله تعالى: ﴿ وهو شديد المحال ﴾.(الرعد: 14) أي الوصول في خفية من الناس إلى ما فيه حكمة. وعلى هذا النحو وصف بالكيد والمكر لا على الوجه المذموم، تعالى الله عن القبيح). (الفيروزابادي: 510/2)

وتحديد مدة الرضاع فإن فيه من الحكمة مالا يخفى، فإن الله تعالى وهو الخالق المبدع سبق في علمه أن لبن الأم كاف للرضيع مدة رضاعه التي حددها العليم الخبير دون أن يحتاج إلى أي غذاء آخر غير حليب أمه، وهذا من الحقائق العلمية، فقد أثبت الطب أن لبن الأم أنفع للرضيع من غيره وكاف له كطعام وشراب مدة الرضاع، وإن تجاوزها يكون بحاجة إلى غيره. ومن أظهر الفروق بين العام والسنة وبين الحول، أن السنة والعام يتفقان في عدد الشهور والأيام سواء الشمسية والقمرية.

أما الحول فيستعمل فيما كان عدد شهوره وأيامه أقل من شهور وأيام السنة والعام. يقول الله تعالى: ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾.(البقرة: 233) قال ابن عباس: هي في الولد يمكث في البطن ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر، فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا، فإن مكث ثمانية أشهر، فرضاعة اثنان وعشرون شهرا، فإن مكث تسعة أشهر، فرضاعه أحد وعشرون شهرا؛ لقوله تعالى: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ (الأحقاف: 14). وعلى هذا تتداخل مدة الحمل ومدة الرضاع ويأخذ من الآخر.(القرطبي:3/ 163)

وعبر القرآن الكريم في هذه الآية عن كل مدد الرضاع رغم تفاوتها بالحول، وفي هذا دلالة على أن الحول يكون اثني عشر شهرا أو أقل.

أما الحجة فهي تتفق مع السنة والعام والحول في عدد الشهور والأيام، غير أن الحجة فيها معنى مضاف تمتاز به ألا هو معنى القصد والتكرار، فالمضروب له أجلا، كأنه خلال أيام السنة لا مقصد له ولا غاية له إلا الوصول وبلوغ ذلك الأجل، ويتكرر ذلك لسنين، فكأنه يحج إليه أي يقصده كل عام.

المبحث الرابع: دراسة بعض الآيات الوارد فيها لفظ السنة والعام والحول والحجة

المطلب الأول: بعض الآيات الوارد فيها لفظ السنة

ورد لفظ السنة في القرآن الكريم في مواضع متفرقة، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الآيات، واقتصر على ما جاء منها مفردا دون الجمع،ونستعرض أقوال المفسرين والفقهاء في معرفة مراد الله تعالى من هذه الكلمة في هذه المواضع وهي:

1. قوله تعالى: ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ (البقرة: 95).

اتفقت أقوال أهل التفسير أن الذي يود أن يعمر ألف سنة إنما يود ذلك فرارا من عقاب الآخرة رغم علم بعضهم أنه لا نجاة لهم من عقاب الله خاصة اليهود منهم، فهم وإن عمروا كما يتمنون فإنهم سيحيون حياة الخوف والرعب والندم؛ لأنهم موقنون بأن عقاب الله تعالى سينالهم وإن طال الزمن؛ ولذلك عبر بالسنة خاصة دون العام والحول والحجة.

قال الطبري:»حببت إليهم الخطيئة طول العمر،وحياة الخطيئة لا يخفى ما فيها من الندم والأرق والألم»(الطبري: 1/ 564).

وقال الشوكاني «أي: هم أحرص الناس على أحقر حياة».(محمد الشوكاني: 1/ 115)

2. قوله تعالى: ﴿... قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾. (المائدة: 28)

لقد تفضل الله ـ جلت حكمته ـ على بني إسرائيل بنعم وفضائل لا تعد، فجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكا، وأعطاهم من النعم ما لم يعط أحدا من العالمين؛ إلا أن بني إسرائيل رغم التفضل والإنعام أعرضوا عن أمر ربهم، وفي هذه الآيات يحدثنا المولى عن إعراضهم لتنفيذ أمر أمروا به وهو دخول الأرض المقدسة (دمشق وفلسطين وبعض أرض اليمن (القرطبي: 125/6) ؛ فعاقبهم الله تعالى بأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض.

والتيه: الحيرة، يقال: تاه يتيه يتها وتوها إذا تحير، وتيهته وتوهته: الأرض التيهاء التي لا يهتدى فيها. وكان بنو إسرائيل يسيرون المسافات الطويلة يومهم وليلتهم، فيصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا، فكانوا سيارة لا قرار لهم (القرطبي: 6: 129)، ولما كان التيه عقوبة لهم حددت أيام التيه بالسنة لا بغيرها.

3. قوله تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾.(الحج: 45) في الآية التي سبقت هذه الآية وهي قوله تعالى:

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (الحج: 46). بين سبحانه

أن حياة من لا يعتبر ولا ينتفع بما جرى وحصل فإنه أقرب للعجماوات منه إلى الإنسان، فحياتهم حياة بهيمة، وقد شبههم الله تعالى بالأنعام بل هم أضل، فهي حياة جذباء من المعاني الإنسانية.

ونتيجة لغرورهم وطغيانهم ومبالغتهم في السخرية والإعراض فإنهم يستعجلون عقاب الله الذي توعدهم به، فيجيبهم الله ـ تعالى ـ بأنه لن يخلف وعده وبأنهم سيلاقون ما توعدهم به في أيام شداد متناهية في الطول، فإذا كنتم تتألمون بما تلاقونه في حياتكم الدنيا من اضطراب وألم، فإن عذاب الآخرة أشد. أن ما تقاسونه في الدنيا لا يساوي شيئا أمام عذاب الآخرة.

فظهر من خلال معرفة معاني الآيتين أن الله ـ تعالى ـ عبر بالسنة؛ لأنه سبق في علمه أن حياة الكافر الجاحد حياة منغصة بالأكدار خالية من المعاني الإنسانية، بل هي حياة مادية حيوانية، فناسب أن يحدد أيامها بالسنة. هذه بعض الآيات التي ورد فيها لفظ السنة، وقد ثبت من خلالها لفظ السنة أغلب استعمالاته في الجذب سواء الجذب المادي أو المعنوي.

المطلب الثاني: معاني «العام» في القرآن الكريم

- قوله تعالى: ﴿ ... فأماته الله مائة عام ثم بعثه...﴾.(البقرة: 258)

هذه الآية تقص لنا قصة رجل مر على قرية فوجدها خاوية على عروشها خالية من البشر ومن كل مظاهر الحياة، فقال في نفسه: أنى يحي الله هذه بعد موتها، متى يحيها، وكيف يحيها، وهو استبعاد لإحيائها وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المباينة لحالة الأحياء، فلما قال هذه المقالة ضرب الله له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه، فأماته مائة عام ثم أحياه فوجد غير الذي ترك: قرية متكاملة البنيان عامرة بأهلها، فقال: كم لبث؟ فقال لبث يوما أو بعض يوم. فقال: بل لبث مائة عام.(القرطبي: 3/289، والشوكاني: 1/ 279)

ويلاحظ أن الله ـ تعالى ـ لم يقل سنة ولا حولا؛ لأن من يقيم مائة عام وتمر المائة وكأنها يوم أو بعض يوم فإن فيه دلالة على أنه أقام إقامة خالية من الألم والمنغصات؛ فساعة الألم والحزن والندم تمر وكأنها سنة، وساعة الرخاء والسعة تمر وكأنها طيف خيال؛ ولذلك عدل عن السنة والحول، وحل محلهما العام، وهو الموافق لما يتطلبه المقام، وهذا من تمام

الإعجاز المتمثل في الدقة المتناهية في اختيار الألفاظ الدالة على المعنى المراد.

● قوله تعالى: ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما﴾. (التوبة: 37) ذكر الطبري أن سبب نزول هذه الآية هو: جنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله الناس، فيحرم صفر عاما، ويحرم المحرم عاما، فذلك قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾.

ومعنى الكلام: يحلون الذين أخروا تحريمه من الأشهر الحرم الأربعة عاما ويحرمون عاما؛ ليوافقوا بتحليلهم ما حللوا من الشهور وتحريمهم ما حرموا منها عدة ما حرم الله. (الطبري: 6/ 164)، فمن معرفة سبب نزول الآية ومعرفة معناها يظهر أن العرب أيام الجاهلية، كانوا يحرمون من الشهور ما يوافق مصالحهم، فإذا ما كانوا في رغد حرموا ومنعوا من القتال والغزو؛ كي يأمنوا وينعموا بما حازوا، وإذا كانوا في محرم بحاجة إلى قتال وغزو، وكانوا على جاهزية أحلوا، ليغيروا ويتملكوا ما يجعلهم في رغد، فهم يحلون ويحرمون للرغد والرفاهية؛ ولذلك عبر «بالعام»؛ ليدل على معنى الرفاهية.

● قوله تعالى:﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾.(يوسف: 49)

هذه الآية بشارة من الله تعالى للمستفتين يوسف بأنه سيأتي عليهم عام يغاثون فيه بالمطر ووفرة الرزق، قال الطبري: وهذا خبر من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله، وقوله تعالى: ﴿ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾، أي: يغاث الناس بالمطر، ويعصرون العنب والسمسم، وما أشبه ذلك. (الطبري: 7/ 288. 289)

إنه لما كان العام عام خير وأمطار ورزق، وما يترتب على ذلك من رخاء ورغد، حدد ـ المولى ـ مدته بالعام ولم يحدده بالسنة. وهذا واضح في كون العام إنما يستعمل في الغالب والكثير في الرخاء والرفاهية.

آيات جمع الله فيها بين اللفظين:

يتضح الفرق جليا بين العام والسنة في الآية التي جمع الله فيها بين العام والسنة في جملة واحدة وهي: قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ (العنكبوت: 13) روى ابن عباس قال: « بعث

نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا». (إسماعيل بن كثير القرشي: 5/ 312)، وهذه الرواية هي الأقرب.

فقد لبث سيدنا نوح عليه السلام ألف سنة يدعو قومه لتوحيد الله، وكان طيلة هذه الفترة يعاني ألم الإعراض والسخرية والاستهزاء والنوح والبكاء على قومه، وما سمي نوح إلا لكثرة بكائه ونوحه على قومه. (القرطبي: 13/ 323).ولما كانت هذه المدة الطويلة وهي مدة الدعوة المليئة بالحزن والمشقة والألم كانت سني جذب لم يجن منها سيدنا نوح إلا الإعراض والإنكار حددت بالسنة، أما ما قضاه سيدنا نوح بعد الطوفان فكانت عامرة بالإيمان وإقبال الناس على دعوته فحدها بالمولى بالعام؛ لأنه المناسب للاستعمال اللغوي.

المطلب الثالث: الآيات التي ورد فيها ذكر الحول

ورد ذكر الحول في آية واحدة في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾. (البقرة: 231)، لقد سبق الحديث عن هذه الآية ومعرفة مراد الله ـ تعالى ـ منها من خلال أقوال المفسرين، ولكن يمكن تلخيص ما ذكر في نقطتين: ـ

1. أن الحول يستعمل فيما كان عدد شهور اثني عشر شهرا، كما يستعمل فيما دون ذلك.
2. أن الحول فيه دلالة على حكمة ولو خفية، أو أمر محكم.

المطلب الرابع: الآيات التي ورد فيها ذكر الحجة

لم يرد ذكر الحجة بمعنى المدة الزمنية إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿... قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك﴾. (القصص: 27) حدد مهر أحد البنتين بأن كان الإجارة على رعي غنم الولي ثماني حجج، ولم يقل سنوات ولا أعوام؛ لأن ما بدأ به الحول من الأيام والشهور جعل الوصول إليه من قابل مقصدا وغاية، وببلوغه ثماني مرات يكون قد سدد الأجرة، أو دفع المهر، فكان استعمال الحجج أبلغ في مثل هذا المقام من غيره من الألفاظ التي تحدد بها المدد؛ لأن الحجة فيها معنى القصد، والتكرار.

الخاتمــة

الحمد لله أولا وآخرا، هدانا ونور بصائرنا بنور القرآن، ووفقنا لدراسة بعض آيات القرآن، والصلاة والسلام على من أنزل عليه أفضل كتاب سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والآل.

وبعد...

فبعد هذه الرحلة الشيقة مع بعض آيات الكتاب العزيز، توصلت إلى نتائج وفوائد أوجزها في النقاط التالية:

- أن هذه القاعدة صحيحة المعنى، ويلزم لزوما شرعيا الوقوف عند حدها؛ لأنها مستوحاة من بعض آي القرآن.
- إن القرآن الكريم لا يدخله الترادف، وحتى وإن بدى لأول وهلة، فإنه بعد إعمال الفكر، والنظر في مدلولات الألفاظ يتضح الفرق بين المترادفات، فإن كل مرادف وإن اشترك مع مرادفه في معنى أو معاني، إلا أنك تكتشف معنى خاصا يتميز به عن مرادفه.
- السنة في القرآن تتميز عن مرادفاتها، بأنها غالبا ما تستعمل في سني الجذب والقحط والشدة، ولم يستعملها القرآن لغير هذا المعنى.
- والعام يتميز بمعنى الرفاهية والرخاء والسعة، بالإضافة على دلالته على ما تدل عليه السنة من عدد الأشهر والأيام.
- أما الحول فيختلف عن السنة والعام في كونه غالبا ما يستعمل فيما فيه حكمة، أو حقيقة علمية، بالإضافة إلى أنه يطلق على ما كان عدد شهوره وأيامه موافقا لشهور وأيام السنة والعام أو أقل.
- الحجة وفيها معنى التلهف وفراغ القلب عن كل شاغل سوى الوصول إلى رأس الحول، بالإضافة لدلالته على التكرار، والقصد.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الرحلة العلمية المتواضعة.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.
2. الأشباه والنظائر لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض. منشورات: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
3. بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي. ت: 817هـ. تحقيق:محمد علي النجار. مطبعة: المكتبة العلمية ـ بيروت.
4. *تفسير ابن كثير لعماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي. ت:774هـ. إشراف:لجنة من العلماء. م: دار الأندلس ـ بيروت.
5. تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور. / الدار التونسية للنشر والتوزيع
6. *الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله أحمد القرطبي. م: دار إحياء التراث العربي.
7. جامع البيان في تأويل آي القرآن. لأبي جعفر الطبري. تصحيح:مكتب التحقيق والإعداد العلمي بدار العلوم.م: دار ابن حزم، ودار الإعلام.
8. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني. ت: 430هـ. م: دار الكتاب العربي ـ بيروت.
9. *سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي. ت: 748هـ. ط: العاشرة 1994م. م: مؤسسة الرسالة ـ القاهرة.
10. شرح صحيح مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي. ت: 676هـ. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. نشر: المكتبة التوقيفية.
11. فتح الباري شرح صحيح البخاري. لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ت: 862هـ. ترقيم وتبويب: محمد فؤاد عبد الباقي. تصحيح وإشراف: محب الدين الخطيب.م: دار المعارف ـ بيروت.
12. فتح القدير الجامع بين فني الرواية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني. ت: 1255هـ. تحقيق: سيد إبراهيم. م: دار الحديث ـ القاهرة.
13. لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. ت: 711هـ. تقديم: عبد الله العلائي. تصنيف: يوسف خياط. م: دار لسان العرب ـ بيروت.
14. معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية. لمحمود عبد الرحمن عبد المنعم.م: دار الفضيلة
15. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة. م: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
16. المخصص لابن سيدة أبي الحسن علي بن إسماعيل. 458هـ.م:المكتب التجاري للطباعة والتوزيع ـ بيروت.
17. المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل. شرح: أحمد شاكر. ط: الأولى.م: دار الحديث ـ القاهرة.
18. المنثور في القواعد لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر المعروف بالزركشي. ت: 794هـ. تحقيق: محمد حسن إسماعيل. ط: الأولى. م: دار الكتب العلمية ـ بيروت.